تجديد فهم الدين
مفهوم التجديد، مجالاته، أهميته وآثاره
للدكتور محمد السيد الدسوقي

قراءة وعرض: نهى إسماعيل الفخراني(*)

إن قضية التجديد من أهم القضايا المطروحة على الساحة الإسلامية، خاصة بعد حملات الانقضاض على الأمة الإسلامية ومحاولة النيل منها بمعاول هدامة، وذلك لما ترى في الإسلام عدواً لها خاصة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي.

وعلى مر التاريخ لم تسلم الأمة الإسلامية من الشبهات والإساءات الموجهة لها والتي زادت الوهن وهناً فلا نملك سوى التنديد والاعتراض في حين أننا في حاجة ماسة إلى فكر جاد على أرض الواقع ألا وهو (الاجتهاد والتجديد) الذي يفند مزاعم الغرب ويرد الظلم عن الإسلام هذا الدين الكامل الشامل الذي يدعو إلى أعمال العقل لا إلى الجمود والتراخي الفكري، كما أن التجديد سيكون رداً قابعاً لكل الشبهات والاتهامات، فضلا عن أنه يساعد على إثبات عالمية الإسلام وعظمته ورسوخه مادامت السموات والأرض وما دام الليل والنهار.

إن كتاب (تجديد فهم الدين) دراسة يشهد لها بالعمق والتمحيص فهي دراسة ثرية تتطرق إلى مفهوم التجديد، ومجالاته، وضوابطه وأهميته، ختاما بالتوصيات والنتائج، ذلك على مدى تسعة فصول من البحث والعمل الجاد، ولم يجد المؤلف بدًا من البدء بتعريف الدين ليس فقط من حيث الدلالة اللغوية، بل امتد ليشمل التعريف الفلسفي والاصطلاحي للدين، ولكون هذا الدين الخاتم هو المراد بتحديثه فإن المؤلف قد بدأ في الفصل الأول بتحديد(مفهوم التجديد)، وفي هذا الفصل استنكر المؤلف أفكار المتشددين تجاه التجديد الذين يرونه وسيلة للتحلل من الدين، وهو ما لا يدع مجالاً للشك لقمة سائغة لأعداء الدين للنيل منه.

(*) باحثة برابطة الجامعات الإسلامية

الصفة الشرعية للتجديد:

إن التجديد لا يعني الاستخفاف بكل قديم وفتح الأبواب لكل جديد، بل يمكن تعريفه على أنه: (جهد عقلي واع على قدر الوسع والطاقة في إطار ضوابط وقواعد شرعية).

وهناك دلائل كثيرة من القرآن والسنة حول قضية التجديد، مثل قوله تعالى (وأمرهم شورى بينهم)وكذلك حديث أبو هريرة عن النبي ﷺ أن الله يبعث لهذه الأمة – على رأس كل مائة سنة– من يجدد لها دينها.

فخلاصة القول إن التجديد فرض وإن كان كفائيا، وهو ليس بدعة أو هدماً لأصول ثابتة وإنما هو (جهد عقلي تحكمه القواعد الشرعية).

وفي الفصل الثاني آثر المؤلف الإجابة على سؤال مهم وهو:لماذا كان التجديد الديني فريضة؟

وترجع ضرورة التجديد الدين – بخاصة في العصر الحديث–؛لأن الدين الإسلامي دعوة عالمية كبرى بعث بها محمد ﷺ، لتكون نظام الإنسانية الكامل في حياتها الروحية والمدنية عبر الزمان والمكان، ولقد تناول الفصل أيضا أوزار الحضارة المادية الغربية وكيف أثرت على المسلمين وكيف ضايقتهم وأساءت إلى الإسلام؛لذا فإن الرد الصائب على هذه المضايقات لا يكون بالتنديد والمظاهرات بل بالاجتهاد والتجديد والحوار وفق منهج علمي يخاطب العقل، فالتجديد فريضة لمواجهة الأضرار الحضاري المعاصر وهي مسئولية تقع على كاهل المسلمين في كل مكان.

إن المؤلف قد ربط بين الاجتهاد والتجديد في فصله الثالث(دعائم التجديد الديني)، منطلقا من أن الاجتهاد هو قاعدة التجديد، وأساس التطوير القائم على التعقل،وأصالة التدبير في تفهم النصوص، فضلا عن كونه دعامة الدعائم التي يؤسس عليها التجديد الديني.

وعرف الاجتهاد بأنه: جهد عقلي وفق ضوابط وشروط خاصة تتوخى استنباط الأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية، كما أنه الأسلوب العلمي لتعيين الرأي الراجح والأرجح.

وعرض (الدعائم الأساس للاجتهاد)وأشار أن الشروط التي وضعها العلماء للمجتهد على أهميتها ووجوب تحققها لا تفي ببلوغ المجتهد درجة التجديد والتطوير إلا إذا انضمت إليها الدعائم الآتية:

أولا: مدرسة الثروة العلمية:وهي ترتكز على ضرورة الاستفادة من الأجيال السابقة انطلاقاً من مبدأ أن العلم تراكمي، واعتبار أن نهاية المتقدم بداية المتأخر، وليس معنى هذا أن نأخذ الآراء كما هي دون أن نعمل عقولنا.

ثانيا:التجديد في المنهج الأصولي: يدور هذا المنهج حول علم الأصول وهو عماد الاجتهاد وأساس التجديد،ولقد عرفت المكتبة الإسلامية تراثاً منهجياً فريداً للبحث العلمي منذ نحو ثلاثة عشر قرناً وهو ما يعرف باسم أصول الفقه قبل أن يعرف فقهاء القانون المكتبة القانونية في العصر الحديث.

ويستنكر المؤلف جهد المعاصرين في التأليف الأصولي الذي لا يعدو أن يكون صيانة حديثة لأفكار قديمة دون تجديد وتطوير، ويؤكد على أن التجديد في علم الأصول يساعد على حل مشكلات الحياة.

مجالات التجديد الديني

ينقلنا الفصل الرابع إلى أهم القضايا التي تحتاج إلى التجديد وقد تم حصرها في أحد عشر مجالا وهي:

- قضايا العقيدة والعبادة.
- القضايا العلمية والاقتصادية.
- قضايا التربية والاجتماع.
- قضايا الصراع المذهبي والفكري.
- قضايا التقريب بين المذاهب.
- فقه الأسرة.
- فقه الوقف والزكاة.
- تجديد الخطاب الديني.
- قضايا الفقه

- قضايا البيئة
- مفاهيم يجب أن تصحح.

وبصفة عامة نجد أن ما سبق من قضايا يشترك فيها وجود الأمية الدينية والتي هي سبب كل ما يشيع بين الناس من سلوكيات لا دخل للإسلام بها، والسبيل الوحيد للتخلص من ذلك هو اللجوء إلى التجديد الديني والتحرر من قيود الجهل والفقر والصراع المذهبي والفكري.

لقد خصص المؤلف الفصل الخامس لشرح (ضوابط التجديد الديني) مؤكدا على أنه لا تجديد في الثوابت والأصول الشرعية فهي لا تتغير بتغير الزمان والمكان، وأن مهمة التجديد الديني تتمثل في تحقيق سيادة التشريع الإسلامي في عالم الواقع بكافة مستحدثاته وهو ما يستدعي تعاون كل التخصصات العلمية في التجديد.

ونأتي إلى الفصل السادس الذي تناول (أهمية التجديد وآثاره).

فأهمية التجديد الديني ترجع إلى أمرين:

الأمر الأول: هو تأكيد صلاحية الشريعة في كل زمان ومكان.

الأمر الثاني: الرد على كل ما يعادى الشريعة ويسعى إلى عدم الأخذ بأحكامها، والمؤلف هنا يفند كل مزاعم الذين يعارضون تطبيق هذه الشريعة ويكشف عن تفاهت شبهاتهم.

آثار التجديد:

للتجديد أثره الجم في أن تجتاز الأمة مرحلة الضعف والتشرذم وتستعيد مجدها القديم،فهذه الأمة إذا صلح حاضرها بالتجديد كانت رائدة للإصلاح وللتغيير.

ونجح الفصل السابع في تناول التجديد الديني بين الماضي والحاضر، فهو يجيب على تساؤل وهو (منذ متى بدأ التجديد)؟

إن التجديد بدأ بعد عصر البعثة؛ لأن الوحي كان مصدر التشريع الرئيس في هذا العصر ولم يكن للاجتهاد تأثير يذكر ولكن في عصر الصحابة لجأ العلماء إلى الفحص والدراسة والاجتهاد والاستنباط لكل جديد من المشكلات، ثم جاء بعد ذلك التابعون وهم من اتبعوا الصحابة وسلكوا منهجهم في كل شيء فيما عدا الإجماع.

عقبات في طريق التجديد الديني:

أكد المؤلف في الفصل الثامن أن الطريق لم يكن ممهدا أمام التجديد؛ بل أنه وجد عقبات في طريقه مثل: الأسباب السياسية، الاحتلال العسكري والغزو الفكري الذي تعرضت له الأمة الإسلامية، وكذلك المبالغة في رفض كل فكرة وافدة، والحذر الشديد من إتباع الحضارات الأخرى.

التجديد الديني بين النظرية والتطبيق:

وإذا كنا ذكرنا آنفاً التجديد وماله من فوائد،وجب علينا الإجابة على سؤال مهم وهو:كيف يمكن تفعيل هذا التجديد ليكون واقعيا وليس مجرد فكراً نظرياً؟هذا ما أجاب عليه المؤلف في الفصل التاسع والأخير مؤكدا على أن تطبيق الأحكام الإسلامية في الواقع يحتاج إلى منهج يكون مبنيا على فقه تطبيقي ليست غايته بسط حقائق الدين للإقناع فحسب، إنما غايته تسهيل الطريق لتلك الحقائق لكي تصبح جارية في حياة الناس.

بعد هذه الدراسة الطويلة للاجتهاد من حيث معناه ودلالته وضوابطه وآثاره نخلص إلى عدة حقائق ونتائج علمية وأهم هذه النتائج:

٠- التجديد والتطوير سنة كونية والتجديد الديني فريضة وضرورة في كل عصر من العصور.

١- التجديد الديني عماد الاجتهاد.

٢- أن الاجتهاد ليس قولاً بالهوى بل هو جهاد لإحياء ما اندرس من معالم الدين حتى يظل متجددا.

٣- أن التاريخ عرف في كل عصر من العصور الاجتهاد والتجديد مع حدوث تفاوت من حيث القوة والضعف بين حين وآخر.

٤- أن فهم النص الشرعي فهما سليما هو البداية الصحيحة لاستنباط الأحكام والوصول إلى معنى التجديد.

٥- أن التجديد يؤمن بتجديد الفتوى بتغيير الزمان والمكان.

٦- يرى المؤلف أن أسباب وهن وضعف الأمة راجع إلى افتقادها لروح الجماعة والاجتهاد.

٧- يرى المؤلف أن التجديد الديني يبطل مزاعم الحاقدين على الإسلام.

٨- أن طريق التجديد مليء بالعقبات ولكن الإرادة الإسلامية كفيلة بالتصدي لهذه العقبات.

٩- أن إعداد المجدد مهمة ليست بالهينة فهي تقتضي وضع خطة علمية مدروسة.

١٠-لابد أن نستمد من أمجاد الماضي ما يدعم ويقوى انتفاضة الحاضر لضمان مستقبل زاهر.

١١-ضرورة إنشاء مجمع للاجتهاد الديني والتجديد على أن يتمتع بالاستقلالية والتحرر من التعصب المذهبي.

ومن أهم التوصيات:

١٠- عدم الطفرة، فالحرص على التغير والتطوير لا يحقق الغاية منه إلا إذا خضع لتخطيط علمي مدروس فالاجتهاد يدعو إلى الطفرة؛لأنه لاتتمخض إلا عن ابتسار في الفكر وتشتت في الجهد.

١- أن نظام التعليم الحالي في حاجة إلى إعادة النظر فيه شكلاً ومضموناً فلا بد أن تتوازى ثنائية التعليم وتغير المناهج تغيراً جذرياً.

٢- ينبغي أن يدرس تاريخ العلوم ومناهج البحث بين الماضي والحاضر دراسة تنمي ملكية التفكير والاستنباط.

٣- لابد من تدريس مدخل إلى العلوم الشرعية في كليات العلوم الكونية وتدريس مدخل العلوم الكونية في كليات العلوم الشرعية مع الربط بين دراسة أي فرع من فروع المعرفة وبين ترسيخ القيم الدينية والأخلاقية.

وفي نهاية هذه الدراسة الجادة يتضح لنا بشكل جلي أن مهمة المجددين ليست بالهينة وأن الطريق أمامهم ليس بالممهد ولكن رحلة الألف ميل تبدأ بالخطوة الأولى إيمانا وانطلاقا بمبدأ أن ما صلح للأولين لا يعقل أن يكون هو بعينه صالحاً للآخرين فهذا الدين شريعة العقل والرحمة لا يقبل الجمود ولا يجهل تغير الدنيا الدائم وهو ما يفتح الطريق أمام التجديد لتغيير وتصحيح ما يجب تصحيحه.